حول التأريخ الشفهي:
عرض كتاب "دراسة التاريخ من خلال الرواية الشفهية"

تأليف: ديفيد هيونج - ترجمة: ميلاد المقرحي

حسن المغربي
مدير تحرير مجلة "رؤى فكرية"
بنغازي/ ليبيا

مقدمة

"من يتصدى لكتابة التاريخ يلزمه التحري في النقل فلا يجزم إلا بما تحققه، ولا يكتفي بالنقل الشائع (...) ولا يعتمد على مجرد التشنيع في كل أحد، فإن للناس أغراضا متفاوتة، بل ينظر في الناقل فإن كان ثقة ليس بمتهم في المنقول عنه فليعتمده (...) وإن كان الناقل له من ينسب إلى المجازفة أو كان بينه وبين المنقول عنه حظ نفس فليتجنب النقل عنه، فإن اضطر إلى ذلك فليكشف أمره ويتبرأ من عهدته".

(ابن حجر العسقلاني)

"التأريخ الشفهي" Oral historiography هو عنوان كتابٍ، من تأليف المؤرخ الأمريكي "ديفيد هيونج"[1]، نُشر في أصله الإنجليزي سنة 1982م ضمن منشورات " LongMan Group Limited ". وفي عام 1991م، نقله إلى اللغة العربية الدكتور ميلاد المقرحي[2]، تحت العنوان نفسه، وصدر ضمن منشورات مركز الجهاد الليبيين. وبالنظر إلى أهمية الكتاب، وعلى وجه الخصوص لدى طلاب الجامعات بأقسام التاريخ وعلم الاجتماع، استقر الرأي (كما يقول المترجم) على إعادة نشره

[1]- ديفيد هينج: مؤرخ أمريكي، وباحث ببليوغرافي، وأمين مكتبة. ولد عام 1938م في ولاية "أوهايو"، وقضى معظم حياته في دراسة تاريخ إفريقيا، وأسس مجلة "التاريخ في إفريقيا"، وعمل محررا بها منذ عام 1974م حتى 2010م. ألف عددا كبيرا من الكتب في مجالات: علم التأريخ، نظرية المعرفة، علم المكتبات، التاريخ الشفهي، ومنهجية نقد التاريخ.

[2]- ميلاد أبو سلامة المقرحي: مؤرخ ليبي، من مواليد مدينة طرابلس، له خبرة واسعة في حقل الدراسات التاريخية، تخرج في كلية الآداب (قسم التاريخ) بالجامعة الليبية (جامعة قاريونس الآن) سنة 1972م وحصل على درجة الماجستير في تاريخ آسيا من جامعة ميشجان آن آربر بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1976م، وحصل على دكتوراه في فلسفة التاريخ من جامعة واشنطن سياتل بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1982م، وتدرج في عضوية هيأة التدريس بجامعة قاريونس محاضرا، فأستاذا مساعدا، فأستاذا مشاركا إلى أن عين أستاذا للتاريخ الحديث والمعاصر سنة 1994م. له عدة كتب في تاريخ أوروبا الحديث، وتاريخ آسيا الحديث والمعاصر، ومنهجية الكتابة التاريخية.

في طبعة منقحة من منشورات جامعة قاريونس عام 2003م. وواضح إن الطبعة العربية الجديدة جاءت جميلة وراقية من حيث الترجمة أو الإخراج الفني، والمترجم قام بتعديل عنوان الكتاب على النحو التالي: "دراسة التاريخ من خلال الرواية الشفهية"[1]. وذلك لتوسيع دائرة الفهم لدى القارئ العادي. وفي الحق، إن العنوان الجديد يعطي صورة واضحة لمحتويات الكتاب.. ولعل ما يبدو ايجابيا منذ الوهلة الأولى أن صاحب الكتاب يعالج طرق وأساليب الكتابة التاريخية عبر الرواية الشفهية انطلاقا من تخصصه وتجربته الكبيرة في هذا الميدان.

موضوع الكتاب

يعرض هذا الكتاب القضايا المحورية المتعلقة بالطرق السليمة التي ينبغي الالتزام بها إذا أراد المؤرخ الشفهي الجدية في دراسة الأحداث التاريخية وتوثيقها بشكل علمي.

إن سرد أحداث الماضي من خلال المصادر الشفهية موضوع مهم للغاية، خاصة في بلادنا العربية التي تعاني من الانفلات المنهجي في دراسة التاريخ، وقد وقع بين أيدينا في السنوات القليلة الماضية عدة أعمال تناولت التاريخ الليبي الحديث - على سبيل المثال – بطابع شخصي، وفي أحيان كثيرة بدوافع اجتماعية وسياسية معينة، باعتبار أن أصحاب هذه الأعمال حصلوا على وثائق جديدة لم تكن متاحة لغيرهم من الباحثين في الماضي أو أنهم كشفوا النقاب عن أسرار وخفايا تتعلق بالكفاح الوطني، وملفات التجسس والخيانة في مرحلة النضال الشعبي ضد المحتل الأجنبي، لكن، هؤلاء الباحثين لم يتمكنوا من نقد مصادرهم بموضوعية تامة، وبالتالي، الاستفادة من المواد التي حصلوا عليها من أفواه الرواة، وتقديمها بشكل موضوعي، وتأسيسا على ذلك، رأيتُ من المناسب عرض هذا الكتاب ليكون عونا لكل من يحاول التصدي للكتابة التاريخية بالاستناد إلى المصادر الشفهية.

مكونات الكتاب:

يتألف الكتاب من مقدمة وسبعة فصول وخاتمة بالإضافة إلى ثبت بالمصادر والمراجع باللغة الانجليزية. ففي المقدمة، يؤكد المترجم على أن المنهجيات الشفهية استطاعت أن تحتل مكانا بارزا ومتقدما بين منهجيات المؤرخين المحترفين، وهذا يرجع بطبيعة الحال، إلى تحفظ المصادر المدونة التقليدية حول عدد من المجالات التي تشغل الآن اهتمام الباحثين. الأمر الذي جعل مؤلف الكتاب

[1]- الصفحات المشار إليها مأخوذة من كتاب "دراسة التاريخ من خلال الرواية الشفهية"، تأليف: ديفيد هينج، ترجمة: ميلاد المقرحي، من منشورات جامعة قاريونس، بنغازي/ ليبيا، الطبعة الأولى، 2003م.

يقدم عدة إجابات نموذجية على مجموعة من الأسئلة بشأن التأريخ الشفهي، نذكر منها: كيف يصل المؤرخون الشفهيون إلى رواتهم؟ وكيف يتم التعامل مع المادة الشفهية، وما التاريخ الشفهي؟

ومن جهة أخرى، أشار المترجم إلى أن المصادر الشفهية تقع في نوعين متميزين: "الذكريات الشفهية" المستقاة مباشرة من الناس الذين يتم استجوابهم من قبل المؤرخ، وعادة تستعمل هذه المادة لدراسة الماضي القريب.. والنوع الثاني يتمثل في التراث الشفهي الذي ينتقل من جيل لآخر عن طريق القصص والحكايات سواء أكانت شعرا أو نثرا، ومن اشتراطاته أن يكون ممارسا بشكل واسع في المجتمع. وأفضل مثال لهذا النوع ما يعرف في الثقافة العربية بـ "أيام العرب". وقصص "الساجا" بالأدب الغربي.

مقدمة الكتاب:

في البدء ينوه المؤلف على أن عمله لا يهدف لأن يكون دراسة استقصائية وافية للاستعمال المعاصر لمصادر التاريخ الشفهي، وإنما هو محاولة من أجل جمع القليل من القضايا والفروع ذات صلة بمظاهر البحث التاريخي الشفهي. ثم تطرق إلى تبيان المصطلحات والرموز المتعلقة بعلم التاريخ الشفهي، من بينها مصطلح التاريخ نفسه الذي يشمل عدة تعريفات متباينة، ولأن أهداف المؤرخين تبدو مضطربة ومتأرجحة وغير ممكن تحقيقها بحسب قوله. ومن هنا، فقد عرف التاريخ باعتباره كل ما تبقى من آثار الماضي سواء كان ذلك كلمات مدونة أو منقوشة أو أي شيء من صنع الإنسان.

أما مصطلح التأريخ "Historiography " الذي يعني "مهمة كتابة التاريخ"؛ فهو كل نشاط يشمل أي نوع من البحث التاريخي بما في ذلك البحوث التي تعتمد على المصادر الشفهية، ونظرا، لأن هذا المصطلح أقل عرضة للخلط، فقد اختاره المؤلف عنوانا لكتابه.

ويؤكد المؤلف في نهاية المقدمة بأن كتابه لا يتطرق إلى مناقشة النظريات التاريخية المختلفة التي تتنافس من أجل ولاء المؤرخين لها، وإنما يتطرق إلى المنهجية الناجعة لجمع المعلومات التاريخية واختيارها بدقة والربط بينها وبين القرائن والأدلة التاريخية الأخرى، وقبل الشروع في عرض فصول الكتاب تحسن الإشارة إلى ثلاث قضايا مهمة توسع في شرحها المؤلف بالمقدمة وهي على النحو التالي:

الاستفادة من دراسة ماضي التأريخ الشفهي نفسه؛

التأكيد على أن دراسة التأريخ الشفهي تشبه دراسة كل ضروب البحث التاريخي الأخرى؛

إمكانية جعل مصادر المؤرخ الشفهي في متناول غيره من الباحثين إذا أراد الازدهار والخروج من دائرة "التوجس" من قبل الأجيال القادمة.

الفصل الأول (أهمية التاريخ الشفهي)

لا شك أن الاعتناء بالتاريخ الشفهي ازداد بصورة ملفتة للنظر بعد تصفية تركة الاستعمار الأوروبي بالعالم الثالث، فظهرت دراسات في قارة إفريقيا ساعدت على تطور مجال البحث التاريخي الشفهي. مما أضفى عليه شكله المتميز الخاص. غير أن دراسة الماضي من خلال الرواية الشفهية ليست شيئا جديدا، إذ إن المصادر المدونة والشفهية وجدت جنبا إلى جنب بدرجات متفاوتة منذ القدم. وعلى هذا الأساس، ذكر المؤلف لمحة موجزة على بعض الاستعمالات الرئيسة للمعلومات الشفهية في الماضي.

بالرغم من وجود أولئك الذين يعتبرون "هوميروس" كأول مؤرخ شفهي معروف، إلا أن المصنفات التاريخية الإغريقية التي عاشت تتمثل أساسا في مصنفات هيرودوت وتوكيديدس، وكلا العملين كل بطريقته المتميزة، كان بشيرا للبحوث الشفهية التاريخية التي ظهرت فيما بعد.. فهيردودت استخدم التقاليد الشفهية إلى جانب المعلومات التي جمعت من الرواة أثناء رحلاته في العالم القديم، وبشكل خاص رحلته نحو مصر، حيث تأثر بشهادات مصادره بشأن ملوك مصر، وبناء الأهرامات، وكذلك تأثر بروايات الليبيين مثل "الرجال الذين لهم رؤوس كلاب" وغيرها من السخافات المتعلقة بالجغرافيا والمُناخ.

أما توكيديدس، فقد اختار أن يكتب عن الحرب "البيلوبنيزية" وكان أحد المشاركين بها مدة من الزمن، حيث أجرى مقابلات شفهية مع المحاربين، واستمر في ذلك طوال 27 عاما متجولا من مدينة إغريقية إلى أخرى. يدون الوقائع والأحداث بما فيها الخطب التي ألقيت في مناسبات كثيرة، وقد اعترف المؤرخون بالأزمنة التالية، أن أعمال "توكيديدس" تمتاز بالدقة والتجرد والثقة في البحث الدقيق مقارنة بأعمال هيردودت التي تعرف باسم "التواريخ".

وقد استمر المؤرخون الإغريق والرومان فيما بعد في اعتماد المصادر الشفهية لتدوين الأحداث التاريخية الكبرى، مثل حريق روما وذكر الأباطرة والأنبياء، ولعل أهم ما جاء في سياق أهمية الرواية الشفهية هو تدوين أسفار الكتاب المقدس بفرعيه: العهد القديم والعهد الجديد، وتم اعتماد الأسفار التي جمعت بالعهد الجديد ورفضت بعض الأسفار الأخرى مثل "أبوكريفا"؛

ذلك لأن المهتمين بدراسة الكتاب المقدس طعنوا في الطرق المتباينة في نقل الروايات الشفهية المعتمدة في هذه الأسفار.

وفي العصور الوسطى، تطورت ممارسات الرواية الشفهية في كتابة التأريخ من قبل مجموعة من شعراء العالم السلتي في ويلز واسكتلنده وبشكل خاص ايرلندا، كما استخدم المؤرخون الإخباريون في أوروبا الغربية التقاليد الشفهية وشهادات شهود العيان، ويعتبر كتاب " Domesday Book" الشهير أول مصدر رئيسي مدون عن تاريخ إنجلترا النورمانية كما يقول المؤلف، وكذلك أعمال الرهبان والنساك الذين كتبوا عن تاريخ عصرهم الذي عاشوا فيه أو تاريخ الأسقفية التي يتبعونها، ومن أشهر المؤرخين الإخباريين بالفترة النورمانية "وليم ماليزبوري" الذي ألف كتابا مهما عن تاريخ بريطانيا أستند فيه إلى المصادر الشفهية، والمؤرخ "هنري هونتينجدون الذي استند هو أيضا إلى المصادر الشفهية والمصادر المدونة في آن واحد، وقد نصح القراء عندما وصل إلى مرحلة وصف الأحداث التي وقعت قبل ستين سنة من عصره بقوله "والآن هذه الأشياء التي نشير إليها هنا إما أننا شاهدناها بأنفسنا أو أنها قد تناهت إلى أسماعنا من طريق أولئك الذين شهدوها" (ص40).

كما ظهر مؤرخ أخباري ثالث هو "وليم نيوبورج" الذي يختلف عن سابقيه الاثنين فيما يتعلق باستعماله للمصادر الشفهية، فقد كان يذكر القراء بين الفينة والأخرى بأنه سمع الشهادات مباشرة من أولئك الذين عاصروا الحدث الذي يكتب عنه.. ومهما يكن من شيء، فأن أغلب المؤرخين الإخباريين الذين ظهروا في بريطانيا بالعصور الوسطى اعتمدوا على المصادر الشفهية في مؤلفاتهم التاريخية، ومن الطريف حقا، بحسب تعبير المؤلف، أن كل واحد منهم كان حريصا على إشعار وتنبيه القارئ عند استعماله للرواية الشفهية.

واستمر اللجوء إلى المعلومات التاريخية بنوعيها (الشفهي والمدون) طوال العصور الوسطى في أوروبا، وبشكل عام كان هناك صنفان من التقاليد في كتابة التاريخ، الأول يتمثل في كتابة ما يطلق عليه اسم التاريخ العالمي كما فعل "أوتو فريزنج" الذي ذكر في كتابه "تاريخ الحضارة الغربية" قائلا: "لم أسجل إلا ما وجدته في كتابات أناس ثقات".. أما الصنف الآخر فيتعلق بكتابة التاريخ المحلي. ومن أشهر من كتب في هذا المجال "جراما تيكوس" و "آدم بريمن".

وأثناء الحديث عن المؤرخين الإخباريين في العصور الوسطى، يشير المؤلف إلى المؤرخين المسلمين الأوائل الذين وصلت أعمالهم إلى مستوى التقليد الأوربي بل إنها قد تتفوق عليه، فذكر اهتمام المجتمع الإسلامي بالمادة التاريخية الشفهية والمصادر المدونة، خاصة في جمع الأحاديث

النبوية بالقرن الثاني للهجرة، وكيف كان المسلمون يفضلون شاهد العيان على أي نوع من المصادر المدونة، لدرجة أنهم أحرقوا كل ما كتبوه من الأحاديث النبوية كي تنقل محتوياتها من طريق الرواية الشفهية فقط.. وفي الواقع، أن هذا الخبر لم تثبت صحته في أدبيات التراث الإسلامي، ويبدو أن المؤلف نقله عن كتاب عبد العزيز الدوري المسمى "بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب" دون أن ينتبه إلى أن المؤرخ ابن شهاب الزهري أورده في سياق الحديث عن الاخبار التي تزعم أن الرسول (ص) نهى أصحابه عن تدوين أحاديثه حتى لا تختلط بالقرآن الكريم.

ومن أبرز المؤرخين المسلمين الذين ذكرهم المؤلف البلاذري، وهو أول مؤرخ مسلم حاول أن يؤرخ للفتوحات الإسلامية بشكل كامل، من خلال الاعتماد على المصادر المدونة والشفهية معا، ثم تحدث عن الطبري صاحب كتاب "تاريخ الأمم والملوك" الذي يسرد تاريخ العالم من آدم حتى عصره، فذكر سلسلة طويلة من القصص عن الشخصيات التاريخية كالإسكندر الأكبر وأباطرة الرومان والبيزنطيين وحكام الفرس، كما ذكر شخصيات بارزة ذكرت في الكتاب المقدس، وعندما وصل إلى عصره "أخذ يعتمد على روايات شهود العيان مكررا العديد منهم دون أن يفضل أحدهم على الآخر لدرجة أن عمله تحول إلى قصص". (ص 45).

ومن عصر الطبري حتى القرن الرابع عشر الميلادي أنتج المؤرخون المسلمون أعمالا تاريخية اعتمد بعضها على المصادر الشفهية، مثل كتاب "مسكويه" عن الأسرة البويهية وتاريخ الحروب الصليبية، كما ظهر في هذه الفترة أعظم المؤرخين المسلمين "ابن خلدون" الذي أنتج عملين رئيسيين: كتاب "العبر" و"المقدمة". والعمل الثاني كان الغرض منه أن يكون مقدمة لكتاب "العبر"، ولكنه في الحقيقة كان عملا عظيما واسعا حول فلسفة التاريخ. ولا شك أن الكتابة التاريخية عند ابن خلدون تطورت بشكل ملحوظ، فقد كان ينقد الأخبار الخيالية، ويتجنب تصديق كل ما أنتجه السابقون من الأعمال، ويشكك في المصادر الثانوية التي لا تعطي الحقائق الأساسية، إلا أنه عند رحيله إلى مصر سمع من مجموعة مختلفة من الرواة التقى بهم في القاهرة، من بينهم رواة ينتمون إلى الصين، فذكر معلومات مغلوطة حول تاريخ الشرق الأقصى. ورغم ذلك، فإن ظهور "ابن خلدون" يشير إلى بداية جديدة في تطور الكتابة التاريخية عند العرب المسلمين، "حيث ساد الاعتقاد بأن المادة الشفهية تعتبر أقل أهمية من المصادر المدونة.. وهذا التحول حدث في تدوين التاريخ الأوروبي في وقت مبكر" (ص47).

وفي مطلع العصور الأوربية أصبح لكل مدينة أو مؤسسة دينية مجموعة من المؤرخين يعرفون باسم "مؤرخي البلاط" وكان هؤلاء يمدحون أسلاف الأسر الحاكمة ويدونون أفعالهم

الحقيقية والأسطورية معا، وقد ظهرت في تلك الفترة نزعة ترمي إلى ربط تاريخ كل شعب من الشعوب الأوروبية بالتاريخ المجيد لطروادة وروما. وللأسف، أصبحت أعمال هؤلاء المؤرخين بمثابة مصادر بالنسبة لهؤلاء الذين جاءوا من بعدهم، إلا أنه مع نهاية القرن السابع عشر بدأ الاهتمام الجدي باستشارة النصوص الأصلية والرسمية من المعاهدات والسجلات والعقود وسير القديسين باعتبارها مصادر أولية من الطراز الأول، واعتمد مجموعة من المؤرخين في الآن ذاته على المادة التاريخية التي كانت يوما شفهية مثل كتب الأدب الأيسلندي الزاخرة بأعمال البطولة "الساجا" التي شُرع في تدوينها إبان العصور الوسطى من جيل إلى آخر من طريق الرواية الشفهية. وفي الحق، إن تاريخ تطور استعمال المادة التاريخية الشفهية يمكن اعتباره تجسيدا للتغيرات في الموقف الذي حدث تجاه أهمية وقيمة المصادر الشفهية المتعلقة بالأدب الأيسلندي والدول الاسكندنافية الأخرى، حيث تم النظر في مصنفاتهم التقليدية من قبل الباحثين في جو يتسم بتنافس القوميات.

لكن في بداية القرن العشرين أدرك أغلب الباحثين إن هذه الكتب ذات طبيعة أدبية وليست تاريخية، واشتدت حملة الانتقادات ضد المصادر الشفهية، خاصة بعد ظهور مقال عن تراث الهنود الحمر في أمريكا، حيث أعلن الأنثروبولوجي المشهور "روبرت لوي" أنه "لا يستطيع أن يعلق أية أهمية أو قيمة تاريخية على التراث الشفهي وبأي حال من الأحوال، لأننا لا نستطيع أن نقطع بصحتها" ص57. باعتباره يحتوي على أحداث غير مهمة ولم ينجح في الاحتفاظ بالأحداث الخطيرة والهامة جدا، وفي هذا الصدد يقول المؤلف: "لا شك أن عددا من الملاحظات الإضافية التي طرحها "لوي" كانت معقولة وواعية، فهو قد كشف لنا نقاط الضعف الجدية في أغلب القرائن الشفهية وهي القصور في إثباتها بشكل مستقل وبالتالي قبولها دون إثارة الشكوك حولها، ولكن بطبيعة الحال إن هذه الميزة تنطبق أيضا وإلى حد كبير على البيانات والأدلة المدونة" (ص58).

لا شك، إن النظرة السابقة تؤكد على التقسيم المنهجي لدراسة التاريخ البشري الذي قبل به دون اعتراض عدد كبير من المؤرخين، وهو أن المجتمعات البدائية لا بد وأن تكون في مقدمة اهتمام الأنثروبولوجيين، أما المؤرخون فعليهم أن يهتموا بدارسة المجتمعات الراقية التي تعرف القراءة والكتابة. وبالفعل، يقول المؤلف "هناك مقدار كبير من اللامبالاة التي اتخذها أغلب المؤرخين تجاه استعمال المصادر الشفهية أو للتأريخ الشفهي نجده في الطريقة التي عالج بها مؤلفو كتب المنهجية التاريخية هذا الموضوع، فمن بين حوالي اثني عشر أو أكثر من هذه الكتب الواسعة

الانتشار والاستعمال ظهرت أثناء السبعين سنة الأولى من هذا القرن، يوجد كتاب منهجي واحد خصص اهتماما واضحا وملحوظا للمصادر الشفهية" (ص 60).

إن ظاهرة الابهام والتحريف أمر طبيعي بالنسبة للروايات الشفهية التي يتم انتقالها من جيل إلى آخر عبر الذاكرة، ولهذا السبب، استعملها بعض المؤرخين إلى جانب المصادر المدونة على سبيل الاستئناس أو كشيء مكمل لها.

وفي بداية الخمسينات من هذا القرن (يقصد القرن المنصرم) تغيرت النظرة حول القيمة التاريخية للمعلومات الشفهية، وبدأ الكثير من الأنثروبولوجيين وعلى رأسهم "ايفانز بريتشارد" يميلون إلى الرأي القائل بأن المصادر الشفهية التي كانت تروى في المجتمعات البدائية يمكن أن تكون لها قيمة تاريخية.

وتأسيسا على ما سبق، أخذ المؤرخون بشيء من الحذر يعنون بالمصادر الشفهية خاصة في مجتمعات العالم الثالث التي ما زالت إلى وقت قريب في طور الانتقال من البدائية إلى الحداثة، فظهرت مؤلفات لها قيمة تاريخية تصدى أصحابها لموضوعات متنوعة حول الهُوية والتراث والفلكلور الشعبي كالموسيقى والرقص وغيرها.

كما لاحظ المؤلف في خضم تتبعه لتطور منهجية التأريخ الشفهي أن الاهتمامات النشيطة التي ظهرت متأخرة بالرواية الشفهية مصدرها التجربة الاستعمارية، فقد أستعمل كثير من الموظفين الاستعماريين الذين اعتبروا أنفسهم مؤرخين بالرغم من أنه كان ينقصهم التدريب المنهجي والعملي، الرواية الشفهية لدراسة الثقافات البدائية في المجتمعات الأفريقية، ومن هؤلاء الباحثين "جورج جراي" و "بيرسي سمث" و"جيمس ستورات".

ويرى المؤلف أن حصيلة التطور الكمي للتأريخ الشفهي تعدّ إيجابية نظرا لأهمية الإنجازات التي ساعدت المهتمين بدراسة تاريخ وحضارة أفريقيا ومجتمعاتها وكذلك دراسة الأوقيانوس والهنود الحمر في أمريكا. وبالإضافة إلى هذا التطور، يقول المؤلف: "أنه من غير الممكن تنفيذ برنامج يتعلق بالتأريخ الشفهي أو الكتابة التاريخية على أساس الاعتماد على استخدام المصادر الشفهية"، ويحاول الإجابة عن هذه الشكوك بالتأكيد على أهمية التأريخ الشفهي، فهو على الأقل، يسمح للباحثين بدراسة موضوعات مثل تاريخ العالم الثالث بمنأى عن سيطرة الوثائق الرسمية ووجهات النظر الرسمية؛ إذ إن تاريخ دول إفريقيا بشكل عام يحتاج إلى أن يصفى من تأثير الاستعمار.. ففي بلادنا ليبيا - مثلا - ما زالت النظرة التاريخية لحضارة الليبيين من العصور

القديمة حتى عشية الاستقلال تستند إلى المرجعية الأوربية بدءا من أصل الليبيين وحضارتهم القديمة إلى حركة الجهاد الليبي والهُوية الليبية في الوقت الراهن.

في نهاية الفصل الأول يشير المؤلف إلى أن تفسير التراث الشفهي في الوقت الحاضر في حالة تغيير متواصل، ذلك بأن دراسة وفهم المصادر الشفهية أمر صعب ويتطلب جهدا كبيرا، كونه يستند إلى الذاكرة من خلال نقل معلومات شفهية عبر الاتصال من شخص إلى آخر، وهذا الاتصال يؤثر بطبيعة الحال على المادة التي جُمعت.. وبالتالي، ستظل هذه المشكلة من أبرز التحديات التي تواجه التأريخ الشفهي في هذه الأيام.

الفصل الثاني "كيفية التعامل مع المادة الشفهية"

إن الهدف الأساسي من هذا الفصل هو مناقشة الطرق والوسائل اللازمة لجمع المادة الشفهية، وهي مرحلة مهمة وفيها الكثير من التحديات مثل استخدام لغة اجنبية ومعدات فنية متنوعة، بالإضافة إلى أن المؤرخ الشفهي إذا أراد أن يصبح عمله ملهما للأجيال القادمة من الباحثين، عليه أن يدرك أنه من الضروري أن يعتبر نفسه خادما وليس سيدا لأي جزء من الأدلة والشواهد التاريخية. وأن يتحلى بالصبر انطلاقا من بداية بحثه إلى أن يضع أهدافه موضع التطبيق.

ويرى المؤلف أن مشروع البحث الشفهي يمر بثلاث مراحل: "الاستعداد لجمع المادة، جمع المادة، وتفسير المادة". وقد ناقش في هذا الفصل الخطوات الأولية اللازمة قبل الشروع في جمع المادة الشفهية، مثل اختيار موضوع البحث، وقراءة جميع ما صدر من كتب ومجلات علمية حول الموضوع الذي اختاره، بمعنى آخر، يجب أن تكون لدى الباحث معرفة واسعة وعميقة، حتى يعرف إلى أي مدى ستكون فكرته مهمة وقابلة للتنفيذ على أرض الواقع، وبعد اعتماده للموضوع يجب أن يمهد للبحث الميداني، وذلك بالحصول على إذن مزاولة بالمنطقة التي يعتزم دراستها، وفي هذا السياق يقول المؤلف "فعادة من المستحيل على المؤرخ أن يعرف حتى اللحظة الأخيرة ما إذا كانت حكومة معينة تسمح بإجراء مشروع البحث المقترح أم لا ووفق أية شروط، ولا شك أن هذا الأمر قد اضطر المؤرخين إلى أن يقصروا أنفسهم على أحد أمرين: دراسة مجتمعاتهم أو القبول بالقيود التي تفرض عليهم" (ص 77).

وعلى أي حال، بعد الحصول على موافقة الأمنية لإجراء البحث الميداني، من الحكمة أن يتواصل المؤرخ الشفهي مع الباحثين الذين مروا بتجربة البحث في ذلك البلد، ويناقش خطة

مشروعه مع الباحثين المحليين إذا وجدوا.. وإذا كانت لغة مجتمع الدراسة تختلف عن لغة الباحث الأصلية، من المفيد، في هذه الحال، أن يتعلم اللغة الجديدة بدرجة تمكنه من التعامل مع الرواة مباشرة دون الحاجة إلى المترجمين. لكن، وفي حال عدم وجود الوقت لتعلم اللغة، يمكن الاستعانة بخدمات المترجمين الوطنيين الذين يجيدون التكلم باللغتين.

وحالما يصل المؤرخ إلى منطقة الدراسة ينبغي الانتقال إلى الوحدات الصحية لاجتياز كل أنواع التطعيم، حتى لا يتعرض للأمراض المستوطنة، ومن ثم، أول عمل يقوم به هو زيارة دور الأرشيف وسجلات المحفوظات التاريخية، لأنه، من الصعب أن نتصور أي موضوع في مجال التاريخ الشفهي بدون مادة تاريخية ذات صله به في سجل المحفوظات التاريخية العامة أو الخاصة مثل الوثائق الرسمية والعهود الدولية أو مجموعة الوثائق التي يملكها الأفراد كالعقود التجارية والاتفاقات الاجتماعية إذا كان نظام المجتمع عشائريا أو نحو ذلك، وفي هذه الأثناء قد يتعرض الباحث لعدة صعوبات، منها: أن فرص الاطلاع على المحفوظات التاريخية بدور الأرشيف في بلد الدراسة الميدانية تكون بالعادة خاضعة لقيود، وفترة منغلقة تصل إلى ثلاثين سنة وأحيانا أكثر. وهنا، لا بد أن يقدم الباحث رسائل توصية تشهد على صحة الغرض الكامن وراء اهتمامه.

وبالإضافة إلى زيارات الأرشيف المحلي يحتاج المؤرخ إلى تنظيم برنامج عمل لتنفيذ مشروعه البحثي حتى يكسب الوقت، ويستغل بعض المناسبات الدينية بالمجتمع وتعاقب فصول السنة، وبرامج النشاطات المهنية في مجال الصناعة والزراعة وصيد الأسماك، إن مثل هذه النشاطات تخدم كعامل مساعد لذاكرة الرواة.

ويلاحظ المؤلف أن عناصر جمع المادة الشفهية لا تكتمل إلا بوضع استراتيجية "فن توجيه الأسئلة" تعكس رؤية المؤرخ في طرح الأسئلة، لأن "مضمون المقابلات الشخصية الشفهية طبعا يعتمد أساسا على محتويات الأسئلة التي يطرحها المؤرخ الشفهي على الرواة، إلا أن شكل وصياغة أسلوب الأسئلة أمر مهم أيضا، لأن الطريقة التي تصاغ بها الأسئلة قد تؤثر على صحة الإجابات المتوقعة" (ص98) وفي هذا الصدد يحذر المؤلف من استخدام ما يعرف بالأسئلة الإيحائية (The Leading Questions) وهي أسئلة تصاغ بألفاظ توحي بالجواب، وعادة، يُستعمل مثل هذا النوع من الأسئلة في الاستدلالات الجنائية وفي محاكم القانون. وكي يبين المؤلف التأثير السلبي لمثل هذه الأسئلة، وضع عدة أمثلة افتراضية لها، واختار موضوع المقاومة ضد الحكم الاستعماري لرواته، ثم قام بمناقشة كل سؤال من هذه الأسئلة، من حيث الصياغة وتركيب الألفاظ، وفي الواقع، إن كل سؤال جاء ليكشف عن بعض الأخطاء المنهجية التي يقع فيها بعض المؤرخين الذين

يريدون دفع الرواة إلى الاتجاه الذي يريدونه، ونكتفي هنا بذكر السؤال الأخير الذي جاء على النحو التالي"

- أليس صحيحا أن كل واحد تقريبا في هذه المنطقة قد قاوم بشجاعة المستعمرين الأوروبيين عندما جاؤوا وحاولوا أن يقتلوكم ويستعبدوكم؟

يعلق المؤلف قائلا: "هذا السؤال غير جيد(...) فهو مغالى فيه إلى حد كبير ونحن نأمل كل الأمل أن لا يطرح مثل هذا السؤال من قبل أي باحث أو مؤرخ يحترم نفسه" (ص101).

إن الأسئلة المفترضة التي ساقها المؤلف تؤكد في مجملها على ضرورة أن يبتعد المؤرخ كليا عن وضع أسس وضوابط للإجابات، وبالتالي، يجبر الرواة على أن يقدموا له معلومات تعكس وجهة نظره.

ويختم الفصل الثاني بالتطرق إلى ذكر بعض أدوات المهنة، مثل آلات التسجيل الصوتي والكاميرات، واختيار المعدات المناسبة، وكيفية التعامل مع الرواة أثناء المقابلات الشفهية، وإحضار آلة طباعة خفيفة الوزن ومتوفرة بشكل واسع إذا كانت لديه القدرة على استعمال آلة الطباعة، "علما بأن المهارة في الطباعة بالرغم من أنه ليس ضروريا أن تبلغ مستوى البراعة والدقة يجب أن تعتبر ضرورية لكل المؤرخين تماما كضرورة القدرة الببليوغرافية، ولكن في الوقت الذي تعتبر فيه الأخيرة من الأشياء التي يهدف المؤرخ إلى إتقانها تعتبر الأولى غير ضرورية بل تحط من قدرة المؤرخ" (ص106).

إن كل التوصيات المشار إليها أعلاه تؤكد على ضرورة اكتساب المؤرخ الشفهي لمهارات متعددة قبل الشروع بالعمل الميداني. وفي الحق، إن كثيرا منها، تعد في الوقت الراهن غير ذات أهمية من الناحية العملية، ذلك أن تطور العلم في مجال التكنولوجيا، ساعد في استبدال - على سبيل المثال - آلات "الميكروفون" والة التسجيل الشريطية بالأجهزة الذكية كالحاسوب المحمول. وكذلك مراكز مكافحة الأمراض تطورت بشكل ملحوظ في" أنظمة التطعيم" بانتشار منظمات عالمية في جميع أنحاء العالم تقريبا.

الفصل الثالث "جمع المادة الشفهية"

لن أتوقف كثيرا عند هذا الفصل، علما أن محتوياته قد تكون أكثر أهمية للباحثين الليبيين على وجه الخصوص، كونه يهتم بعمليات جمع المادة الشفهية بطريقة علمية، ومع كل ذلك، من الأفضل أن نعطي لمحة مختصرة وشاملة..

ربما من الغريب أن يتم التركيز على طرق جمع المادة الشفهية باتباع طريقة معينة في التعامل مع الرواة، فهناك من يعتقد، بأن نقل المعلومات لا يتطلب سوى طرح الأسئلة، واختيار رواة بصورة عشوائية دون النظر إلى أعمارهم وانتمائهم وإلى ما غير ذلك..

إن التجارب والدراسات الميدانية أثبتت أن الأسئلة العشوائية، تؤثر بشكل سلبي على سير العمل الميداني، وتضع المؤرخ الشفهي عند مفترق الطرق. فلا يعرف كيف يوفق بين الآراء المتضاربة مثلا. أو أنه يفشل في الوصول إلى نتيجة يمكن الاطمئنان إليها. وبناء عليه، توسع المؤلف في شرح الطرق السليمة في جمع المادة الشفهية منها كيفية اختيار "الرواة" وصياغة الأسئلة الموجهة إليهم، وكذلك الصعوبات والمشاكل التي تواجه البحث الميداني الشفهي.

ولعل أهم نقطة تم التركيز عليها هي معرفة المجتمع الذي ينتمي إليه الرواة، فلا بد "أن يعيش المؤرخ الشفهي لفترة من الزمن بين الناس الذين يقوم بدراستهم على أن يتم ذلك بطريقة هادئة وحذرة"(ص122). حتى يتمكن من معرفة العادات والتقاليد، كما يجب أن يتعامل مع المجموعات بدلا من الأفراد، لأن المؤرخين في هذا المجال يختلفون عن الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع، بمعنى، أن على المؤرخ الشفهي أن يختار مجموعة من الرواة تمثل مختلف شرائح المجتمع وتشمل عددا من الشباب في مختلف الأعمار المتعلمين والأميين معا، والرجال والنساء على حد سواء، كل ذلك من أجل توسيع نطاق عملية الاستجواب الشفهي. وعلاوة على ذلك، ينبغي تجنب مناقشة القضايا الحساسة بالمجتمع مثل علاقات النسب، وحقوق ملكية الأرض والطقوس الاجتماعية والدينية المختلف عليها، وإذا اكتشف أن بعض الرواة لديهم معرفة واسعة، وأراد المؤرخ أن يسجل جزءا من معلوماتهم، يجب أن يشير إلى المؤلف الحقيقي، "ويبدو أن أغلب المؤرخين يفضلون أن يدمجوا شهادات مثل هؤلاء الرواة في أعمالهم كما أنهم يفعلون ذلك بطريقة تتحدى أية محاولة للتمييز بين الشهادة الأصلية والتأليف"(ص136).

كما يعتبر المؤلف أن ضبط النزعة الطبيعية للتصديق أمر في غاية الأهمية أثناء جمع المادة الشفهية خاصة فيما يتعلق بالقضايا المتعلقة بالتعاون مع السلطات الاستعمارية والسلوك الرمزي، لكن، وفي أحيان كثيرة، قد يضطر المؤرخ إلى أن يسير في طريق ملتو لكي يصل إلى معلومة معينة، ولو احتاج الأمر إلى مكافأة رواته مقابل المعلومات المهمة. وعندما يقرر عند نقطة معينة أن مرحلة جمع المادة الشفهية انتهت، ينتقل إلى مرحلة أهم، وهي المرحلة التي يتم فيها تحويل المادة الخام إلى تصنيف علمي مقنع.. ومن الطبيعي، في هذه الاثناء، أن تواجه المؤرخ عدة مشاكل كالروايات الكاذبة التي اتفق عليها مجموعة من الرواة لمصلحة معينة. وفي هذا الصدد يقول

المؤلف: "ففي إحدى المناقشات حول الرواة الكاذبين أورد "سالمون" على سبيل المثال، اقتباسا من راوٍ يبدو أنه لا يشعر بالخجل إطلاقا ليعترف أنه ورواة آخرين من المعتاد أن يكذبوا للباحثين الأجانب الذين أرادوا أن يعرفوا "أشياء شخصية" (ص150).. ولكشف مثل هذه الروايات يمكن اللجوء إلى طرح الأسئلة بشكل متكرر.. مع العلم، أن الأكاذيب الواسعة الانتشار قد تساعد المؤرخ على فهم جانب من جوانب الماضي في ثقافة مجتمع الدراسة.

ويختتم الفصل الثالث بالخطوات الأخيرة التي يجب اتباعها قبل مغادرة ميدان الدراسة، وهو أن يقوم المؤرخ بإيداع الأوراق والأشرطة المسجلة بالأرشيف المحلي ذات الصلة بدراسته الميدانية، ويشكر العاملين المحليين بالأرشيف وجميع الرواة والمترجمين الذين أنفقوا جزءا من أوقاتهم لمساعدته في مهمته. ومن ثم يجهز نفسه للرحيل نحو الوطن للتفرغ التام لعملية إعداد البحث العلمي بطريقة فعالة ومجدية.

الفصل الرابع "ترجمة النص"

ينصب اهتمام هذا الفصل على متطلبات ما بعد جمع المادة الشفهية، فالمؤرخ الشفهي يحتاج قبل أن يباشر مهمة إعداد البحث العلمي إلى عدة أمور منها:

الوقفة التي تجدد النشاط وتنقي الذهن: قبل الشروع في كتابة المادة يجب أن يأخذ المؤرخ بعض الوقت لتكوين عدة وجهات نظر تساعد في عمليات اختيار ورفض المعلومات، مثل الشهادات الغريبة المتعلقة بالحيوانات الناطقة والكائنات الخرافية، ولا شك، أن هذه المرحلة جد خطيرة، وتحتاج إلى جهد كبير من حيث التنظيم والترتيب، كما يُطلب من المؤرخ التمييز بين وجهات النظر بأحسن الطرق لرؤية الماضي، ذلك لأن عمله يشبه فن الكولاج "يأخذ مجموعة من الشظايا ويحاول أن يشكلها في فسيفساء يمكن تمييزها أو إدراكها" (ص167) وبشكل عام فإن مهمته الجوهرية تتمثل في فصل الحقائق التاريخية عن الوقائع الكاذبة أو الملفقة.

دمج المادة التاريخية الشفهية والمدونة: بعد جمع الوثائق المدونة يحتاج المؤرخ إلى دمج المادة الشفهية بالمصادر المدونة، وهذه العملية تحتاج إلى مهارة فائقة سواء في أسلوب الكتابة أو تنظيم المادة، ولا يغيب عن ذهنه، أن المصادر الشفهية والمدونة تتصل ببعض من خلال أربع طرق وهي: "قد تكون متطابقة تقريبا من حيث المحتويات ويمكن أن تكون مكملة لبعضها البعض أو يمكن أن تكون متناقضة أو تكون مختلفة كلية عن بعضها البعض لدرجة يمكن القول معها أنها

لا تملك مميزات مشتركة البتة حتى لو كانت تبدو تصف نفس مجموعة الظروف والأحداث" (ص175).

وعندما يكون هناك تناقض واضح بين المصادر الشفهية والمصادر المدونة، لا يعني ذلك أن الأولى (كما يقول المؤلف) تُصحح الثانية، لأنه في حالات كثيرة من المرجح أن يحدث العكس تماما. وفي نهاية الأمر، المطلوب من المؤرخ هو أن يجعل مصادره سواء المدونة أو الشفهية جزءا مكملا ومفسرا لأي عمل علمي يقوم بنشره.

مشكلة الحلقات المفقودة: تتخلص هذه النقطة في قضية نقل الروايات الشفهية خلال الزمن، وقد ناقش المؤلف في هذا الصدد نموذجين الأول يعتمد على الكلمة المنطوقة والثاني على إعادة بناء المعلومات في زمن متأخر. النموذج الأول يقصد به ما حدث في المجتمع الإسلامي أثناء تدوين أحاديث النبي محمد (ص) حيث تم اختراع الإسناد من أجل البرهنة على أن الأحاديث قد ظهرت في وقت النبي، أما النموذج الثاني، فهو من غرب أفريقيا، ففي وقت من الأوقات ظهرت قوائم الأنساب المتعلقة بالدعاة المتعاقبين يرجع تاريخها إلى ألف سنة مضت لخدمة مصالح شرعية وعقائدية...

إن النظر في هذين المثالين يساعد على توضيح المشاكل المتعلقة بسلسلة انتقال المعلومات سواء أكانت حقيقة أم خيالية. وعليه، فمن المهم بل الضروري، أن يتتبع المؤرخ مثل هذه السلاسل ليكشف عن نقاط الضعف فيها، فالمثل القائل بأن السلسة ليست أقوى من أضعف حلقة فيها هو صحيح.

الرواة: كفنانين ومحامين: إن الكلمة المنطوقة تلعب دورا اجتماعيا بارزا في جميع المجتمعات الفطرية، وبالتالي، فهي تحتاج إلى فن الإلقاء بحسب الإطار الثقافي المتبع في المجتمع، ربما يكون الأداء عبر رجال الدين أو شعراء أو كتاب المسرحيات، وفي جميع الأحوال يلاحظ "أن عملية تجميل السرد يمكن أن تأخذ عدة أشكال: تقديم أو إدخال حركات وإيماءات وتغيير نبرات الصوت، أو درجة النغم، أو طبقة الصوت، أو إيقاع الحديث، وإضافة حركات خيالية لعناصر القصة الموجودة أو اختراع رموز وحالات جديدة يمكن زخرفتها. وقد يكون الدافع وراء إدخال هذه التعديلات هو رغبة القائم بالأداء الشفهي في أن يبرز براعة القصاصين الآخرين وذوقهم الفني"(ص188).

باختصار، إن الرواة يتصرفون وكأنهم يقومون بأداء عمل فني أو كمحامين يتصرفون بدون حياء فيما يتعلق بالنزاعات بشأن أهلية الأفراد في المناصب أو في حقوق الرعي والصيد. وهذا بطبيعة الحال يعطي عدة فرص لإساءة استخدام الذكريات التاريخية لصالح إقامة الدعاوي أمام القضاء، وهي حالات مألوفة وتتكرر بشكل مزعج.

الفصل الخامس "تفسير المحتوى"

يمكن أن ندرك بسهولة ويسر الارتباط القائم بين الفصل الرابع "ترجمة النص" والفصل الخامس "تفسير المحتوى" وذلك لسبب بسيط، فالنص الحاضر/ الماضي يطرح للمناقشة والفحص في كلا الفصلين، كما أن الأحكام التي "يصدرها المؤرخ حول القضايا ذات الصلة بالنص هي بالضرورة أكثر خصوصية وأهمية لأن تجارب وخبرات البحث الميداني تختلف من باحث إلى آخر، ومن حسن الحظ أنه بالنسبة للقضايا المتعلقة بالمحتوى يوجد دليل للمؤرخ الذي يرغب في أن ينظر إلى نفسه كمجرد ممثل لمشروع كبير وواسع النطاق" (ص193-194).

ومن الطبيعي أن مثل هذا الأمر يستدعي معرفة واعية ومسؤولة تأخذ بالاعتبار الإمكانات المتوفرة، إذ أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة ببساطة حتى لو توفر لدى المؤرخ مواد غزيرة.. بالرغم من أن تكوين الرأي اعتمادا على القياس والمقارنة أفضل بكثير من مجرد التخمين، وتأسيسا على ذلك، ضرب المؤلف عدة أمثلة بشأن مصادر الإثراء واسترجاع المعلومات، وقد بدأ بروايات الكتاب المقدس.

ففي أوروبا قبل اكتشاف العالم الجديد كان هناك اقتناع تام بالروايات التاريخية التي جاءت في الكتاب المقدس بشأن خلق البشر وتوزيعهم في العالم المأهول، وبطبيعة الحال فإن هذه الأخبار لم تأخذ في الاعتبار أنواع الحيوانات والنباتات والناس الذين تم اكتشافهم في الأمريكيتين، الأمر الذي ساعد في ظهور نظريات لاهوتية تقول بأن الهنود الحمر في أمريكا كانوا مجرد حيوانات، ولذا لا حاجة لأن يذكرهم الكتاب المقدس.

كذلك القرآن الكريم يعتبر بحسب وجهة نظر المؤلف من أهم مصادر الإثراء مثل الإنجيل وبقية الكتب الدينية الأخرى. وكتب موظفي الإدارة الاستعمارية هي أيضا من أهم مصادر الإثراء، وقد تأثر بها عدد كبير من أعضاء المجتمعات البدائية خاصة هؤلاء الذين يخدمون كرواة، لدرجة أنه لم يعد يوجد تراث شفهي سليم غير محرف في مثل هذه المجتمعات. ومن هنا، يجب على المؤرخ أن يفحص المادة التاريخية بدقة ليعرف تأثير المصادر الخارجية، وهذا لا يتم إلا إذا استطاع أن

يميز على الأقل بشكل تقريبي بين هؤلاء الرواة الذين قد اكتسبوا معرفة دخيلة وهؤلاء الذين لم يفعلوا مثلهم.

ومهما يكن من شيء، فإن تحديد مصادر الإثراء لن يكون يسيرا بالنسبة للمؤرخين الذين يبحثون عن الدقة التاريخية، وكشف العناصر المقتبسة من التراث، على الرغم من أن المادة التاريخية غير الدقيقة "يمكن أن تكون ممتعة أو مشوقة أكثر من الحقائق المجردة لأنها تساعد على فهم العقلية الجماعية لمجتمع ما" (ص209).

وإضافة إلى موضوع الإثراء تناول المؤلف ما يعرف بـ "الأبطال الثقافيين" وبطل الثقافة "هو مصطلح يستعمل عادة لوصف شخص ما قد يكون وجد فعلا أو لم يوجد، إلا أن دوره في التراث قد أضفى عليه الكثير من التمجيد والمبالغة إلى درجة أنه قد أصبح يجسد جزءا كبيرا من التراث الثقافي وفترات طويلة من الزمن"(ص 211) ويوجد في كل مجتمع بدائي تقريبا بطل ثقافي واحد وأحيانا أكثر مثلا: "الملك آرثر" في بريطانيا، "رومولوس وريموس" في روما، "الأباطرة الخمسة" في الصين، "راما" في الهند، "أبو زيد الهلالي" في الثقافة الإسلامية. ولا توجد أدلة كافية على وجود هؤلاء الأبطال إلا بالتراث الشعبي نفسه.

إن دراسة الشخصيات الأسطورية ومؤثراتها بتراث المجتمع يمكن أن تساعد المؤرخ الشفهي في فهم العقلية الجماعية للناس الذين اخترعوا هذه الشخصيات أو نقلوها من جيل إلى آخر. إذ إن البحث في أصول بطل الثقافة يوضح، على أقل تقدير، أسباب اختراعه من جهة وربطة بالمجتمع الذي ينتمي إليه من جهة أخرى.

كما أشار المؤلف إلى ما أسماه بـ "أصول الأشياء" ويقصد به البحث عن مسألة بداية الكون والجنس البشري، وهي موضوعات سيطرت بشكل واضح على التفكير البشري منذ العصور القديمة، فالفلاسفة وعلماء اللاهوت والمؤرخون تناولوا بالدراسة والبحث عن أصولنا المفترضة، واحتدم الجدال، وظهرت آلاف النظريات التي تهتم بسلسلة النسب والهجرات، ولعل أشهر رواية في نظرية الأصول نجدها في الكتاب المقدس، "فبالإضافة إلى الوصف والتفسير الذي يقدمه سفر "التكوين" بخصوص خلق الإنسان والكون (المادة) يخصص اهتماما ملحوظا لتأهيل العالم كما عرفه مصنفو هذا السفر، وهذا التّأهيل السكاني يظهر على هيئة سلسلة نسب ابتداء بنوح وابنائه الذين انتجوا الأجناس البشرية التي انتشرت في العالم فيما بعد" (ص218).

وإلى جانب الكتاب المقدس، قدمت الميثولوجيا الإغريقية والرومانية نظريات شارحة لأصول الشعوب المختلفة، وفي الثقافات الشرقية تتبع علماء الانساب أصل العائلات كما حدث في روسيا وإيران وأرمينيا. وقد تناول معظمهم أصول ونشأة الشعوب البشرية من خلال الهجرات الجماعية، إلا أن نظرية الهجرات لم تصمد طويلا.. فقد اكتشف بالعصر الحديث بأن الكثير من الأحداث التي تصفها الروايات الشفهية بأنها وقعت في زمن حديث نسبيا قد تكون في واقع الأمر قد حدثت منذ زمن بعيد. وقد اتضح كذلك،من خلال الأدلة التاريخية المتعلقة بالغزو الإسرائيلي لفلسطين، بطلان رواية سفر الخروج التي كانت مقبولة لفترة من الزمن؛ حيث إن "المواقع التي جاء وصفها بشكل ثابت في سفر الخروج وخاصة (أريحا) أنها – أي هذه المواقع- لم تكن موجودة عند وقوع الغزو كما يزعم سفر الخروج" (ص226). كما اتضح أيضا أن مصطلحا عبريا كان يستخدم بشكل غير مقصود في تلك الفترة، وأن ما يسمى بالشعب الإسرائيلي هم في حقيقة الأمر مجموعة واحدة من بين مجموعات أخرى عاشت في المنطقة ومارست التجارة مع جيرانها.

وفي خضم الحديث عن الهجرات الجماعية، تناول المؤلف "تحديد تأريخ الأحداث" من منطلق أقوال المؤرخين المأثورة: "لا تاريخ بدون تعيين الوقائع التاريخية وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمني". فمن المعروف، أن المجتمعات البدائية لا تهتم كثيرا بتحديد التواريخ، وإنما تؤرخ للأحداث بحسب الوقائع المشهورة، فعلى سبيل المثال، اعتاد المؤرخون المسلمون تحديد مولد النبي بعام الفيل، وإلى وقت قريب يستخدم بعض كبار السن في ليبيا (على سبيل المثال) مصطلحات مثل: عام "عجاج سي المهدي" أو "زلزال المرج" للإشارة إلى واقعة حدثت في تلك الأعوام، وهنا تواجه المؤرخ الشفهي صعوبة بالغة في تحديد التواريخ التي تقع في مجال دراسته.

وتأسيسا على ما سبق، ناقش المؤلف ثلاثة مصادر رئيسة لتحديد التواريخ الزمنية في المجتمعات البدائية وهي: "سلسلة الأنساب، علم الفلك، وعلم الآثار".

أولا: الانساب: لقد تعرضت سلسلة النسب للتشويه في عدد كبير من المجتمعات، خاصة في بلاد ما بين النهرين وفي شبه الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام، بالإضافة إلى عدة أنساب وردت في الكتاب المقدس، ويبدو أن الغرض من هذا التشوية يكمن في المبالغة في تمجيد الماضي، وقد كان "جفري مونموث" أحد هؤلاء المؤرخين الأخباريين الذين ظهروا في العصور الوسطى واخترعوا أعدادا كبيرة من الحكام الذين لم يكن لهم وجود حقيقي"(ص237). ومع هذا، لا يزال هناك من يلجأ من المؤرخين إلى استخدام شجرة النسب لتحديد الوقائع التاريخية عبر جمع أشجار النسب ثم استنباط شخصيات لكل جيل، وبالتالي يمكن تعيين تواريخ على وجه التقريب..

فعلى سبيل المثال "في التسعينات من القرن التاسع عشر قررت الجمعية البولينيزية أن مدة خمس وعشرين سنة رقم معقول لشخصيات في الأنساب التي جمعت في نطاق جزر المحيط الهادي، بينما في دراسة التاريخ الأفريقي المبكر استقر الرأي على استخدام مدة تتراوح من خمس وعشرين إلى ثلاثين سنة" (ص 232).

ثانيا: علم الفلك: لقد استعمل المؤرخون الظواهر الفلكية السماوية مثل كسوف الشمس وخسوف القمر وما يرافقهما من أجل تحديد أوقات حدوث المواقع التاريخية بدقة (السنة، الشهر، اليوم، والساعة، وحتى الدقيقة، فعلى سبيل المثال استعمل الباحثون في تاريخ المسيحية القصص التي تشير إلى وقوف الشمس ساكنة في وسط سماء "أريحا" لكي يبرهنوا على وقائع وأحداث معينة مثل صلب المسيح، "وبطريقة مماثلة بذل المؤرخون الأفريقيون أخيرا عدة محاولات في سبيل استعمال أمثال هذه الظواهر الفلكية" (ص 244) لكن أغلبها باء بالفشل.

من الأفضل تجنب الاعتماد على الظواهر الفلكية في تحديد تواريخ الأحداث، لأن الذاكرة الجماعية للمجتمع قد تذكر كسوفا شمسيا واحدا حدث في وقت ما وتنسى كسوفات أخرى حديثة العهد.

ثالثا: علم الآثار والتراث الشفهي: من المعلوم أن الآثار تساعد في كتابة التاريخ، فهي التي تؤكد أو تنفي أية تواريخ، بل المخلفات الأثرية مثل العملات النقدية والأواني الفخارية يمكن أن تخبر المؤرخ أن الموقع قد وقع تحت الاحتلال الأجنبي في زمن ما. لكن، في أحيان كثيرة، البقايا الأثرية لا تقول شيئا، خاصة فيما يتعلق بالأحداث الواردة في التراث الشفهي. وعلى العكس، يمكن تحديد مناطق أثرية مهمة من خلال التراث الشفهي، مثلما حدث في جنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية. ذلك بان الروايات الشفهية قد تربط بين المواقع وأسماء الشخصيات بعصور حديثة نسبيا، تختلف عن العصور التي حددها علماء الآثار، "وهذا يشير إلى القدرة على التذكر التي تجعل الذاكرة الجماعية الشعبية تحتفظ بعناصر موغلة في القدم حتى لو كانت هذه العناصر قد تشوهت أثناء عملية الانتقال الشفهي من جيل إلى آخر"(ص247). ومن أجل ذلك، ينبغي للمؤرخ أن يراعي العلاقة بين القطع الأثرية وأشجار النسب في تحديد تاريخ الوقائع، لأنه غالبا، ما ينسى السكان المحليون أشياء حول مواقع محددة، مع أنهم نسجوا حولها حكايات تشير إلى وجود هذه المواقع.

الفصل السادس "التاريخ الشفهي: شهادة حول الماضي القريب"

في الفصول السابقة تناول المؤلف بشكل واسع التاريخ الشفهي من خلال الروايات الشفهية التي تم انتقالها إلى عدة أجيال وأصبحت ملكية عامة. لكن في هذا الفصل يركز على الروايات الشفهية ذات العلاقة بالماضي القريب، ذلك أن معظم المؤرخين الشفهيين يعتقدون بأن دراسة الأحداث المتعلقة بالماضي القريب هي الأجدر بالاهتمام كونها أكثر ارتباطا بالعصر الراهن، لذلك نجدهم يحاولون إجراء مقابلات شخصية مع من اشتركوا فعلا في الأحداث التي يحاولون كتابة تاريخها. ويمارسون عمليات استجواب الناس حول تجاربهم الخاصة، ويسمى هذا النوع –عادة - السيرة الشخصية أو تاريخ الحياة. رغم أن هذين المصطلحين يستعملان أحدهما مكان الآخر. فمصطلح تاريخ الحياة هو مفهوم يستعمل في علم الانثروبولوجيا وفي الطب النفسي وفي التاريخ، حيث يُطلب من الراوي أن يستعرض بعض الأجزاء من حياته.

إن ما يلفت النظر بالدرجة الأولى هو درجة التركيز على تناول العلاقة الخاصة بين الراوي وشهادته وهي التي تثير أغلب القضايا المطروحة للنقاش في هذا الفصل. فمن الطبيعي أن يحتاج المؤرخ الشفهي إلى عدة نصائح أكثر مما هو بحاجة إلى معرفة الأحداث التي اشترك فيها الرواة. ومن هنا طرح المؤلف عدة تساؤلات جاءت على النحو التالي:

- كيف يكون التافه تافها جدا؟
- الذاكرة والقدرة على رؤية الأشياء.
- هل المشاهدة تعني التصديق؟
- هل المتقدمون في السن أفضل حقا؟
- السرية: الثقة.
- قصص وروايات الرقيق سابقا: حالة دراسة.

ربما من المهم إلقاء نظرة سريعة حول النقاط المذكورة أعلاه، حتى تكتمل فكرة المؤلف الذي حاول بطريقة أو بأخرى إرساء بعض المفاهيم المتعلقة بعلاقة المؤرخ ورواته، فهناك انتقادات متكررة توجه إلى التاريخ الشفهي بناء على عمل بعض المؤرخين الذين قاموا بإعادة جوانب من الماضي وقلبوا دور المؤرخ رأسا على عقب، فاهتموا بالعادات والأشياء القديمة وليس لديهم (بتعبير المؤلف) القدرة على التمييز بين العسل والبصل، كل ذلك من أجل، إبراز الماضي وصلته القوية

بالحاضر، وهنا تتحول أحداث التاريخ إلى تاريخ تافه. وللتغلب على هذه المعضلة، يستحسن للمؤرخ عدم السماح لرواته بالاستغراق في الذكريات من خلال إنهاء المقابلة إذا أتضح أنها لا تؤدي إلى نتيجة، فمن أحد التحديات الرئيسة هو إقناع الرواة بأن يذهبوا إلى ما وراء القضايا الشخصية ذات الطبيعة الخصوصية عن طريق ربطها بالأحداث العامة، حتى يتم تزويد المؤرخ بوجهات نظر أكثر شمولية.

وبالنسبة للذاكرة، فإنها تكون في كثير من الأحيان مضللة؛ فالناس يختلفون في تذكر تجاربهم الشخصية بصورة واضحة، وفي هذا الصدد يقول المؤلف: "فالحقائق والأحداث يمكن تذكرها ولكن مواقفنا تجاه هذه الحقائق والأحداث وقت وقوعها قد تنسى أو تستبدل بوجهات نظر جديدة" (ص261).

نعم، من الصعب أن يتحكم الناس في عملية التذكر، وخير مثال على ذلك، رواية التراث الشعبي الذي يتم انتقاله من شخص لآخر ومن جيل إلى جيل، نجد فيه تناقضات وأحداثا مختلفة، وكذلك الأفراد، هناك من ينسب إلى نفسه دورا هاما في الأحداث أكثر مما تشير إليه المصادر الأخرى، وفي هذه الحال، ينبغي عقد مقارنة وتقييم المستويات المختلفة للشواهد التاريخية للتأكد من صحة الرواية.

وفيما يتعلق بتصديق شهود العيان، فمن المعروف أن المشاهدة المباشرة للوقائع، هي شهادة يمكن تصديقها والاعتماد عليها، لأن رؤية شيء ما يخلف انطباعا قويا في الذاكرة، لكن هل جميع الناس الذين شاهدوا واقعة ما، يستطيعون الحديث عنها بنفس الطريقة تماما؟

لقد ضرب المؤلف مثالا رائعا عن اختلاف المعلومات التي تأتي عن طريق المشاهدة المباشرة بقوله: "مثلا اثنان من مشاهدي لعبة كرة القدم سيتذكران فيما بعد أجزاء مختلفة من المباراة حسب اهتماماتهم الخاصة بالفرق اللاعبة أو اللاعبين، وحسب مستوى فهمهما لتعقيدات الألعاب أو ببساطة مدى قدرتهما على الملاحظة (...) فقد يتذكر أحد الأفراد صد هجوم بدلا من تسجيل هدف أو قد يعتبر أن خروج الكرة إلى موضع لا يجوز فيه رفسها أو مخالفة لقواعد اللعبة هي التي حددت نتيجة المباراة وهكذا.." (ص263).

ومن أجل مكاسب مادية ربما يدعي أحد الرواة لنفسه على نحو زائف مرتبة شاهد العيان، كما فعل"بارتولومي دي لاكساس" الذي أدعى أنه رأى أشياء غير موجودة من أجل تعزيز اتهاماته المتطرفة بخصوص الموت الجماعي للهنود الحمر إبان حكم الإسبان. وهنا يجدر بالمؤرخ الحصيف

أخذ الحيطة والحذر من هذه الادعاءات، بل يرفضها، ولو كان مقتنعا أن الراوي شهد فعلا جزءا مما حدث في واقعة ما، فإنه لا يستطيع أن يعتمد كثيرا على مثل هذه الشهادات. وكذلك شهادة المتقدمين في السن، لا يمكن الاعتماد عليها، لأن الإنسان بحسب الدراسات النفسية الحديثة كلما تقدم في العمر تضعف قدرته على التذكر تدريجيا. أضف إلى ذلك، هناك عدة متاعب تواجه المؤرخ مثل السرية، وهي قضية مهمة فيما يتعلق باستعمال التقاليد الشفهية لمجتمع ما، "ومن غير ريب أن مشكلة السرية لا تقتصر على ممارسة مهنة التاريخ الشفهي، فحتى في بعض دور الأرشيف يضفى نوع من السرية على المعلومات الشخصية والمواد الأخرى التي قد تكون لها علاقة مباشرة بالأشخاص الأحياء وعائلاتهم". ومهما يكن من شيء، فمن الضروري عدم استعمال مثل هذه الشهادات والاستشهاد بها دون الإشارة إلى مصدرها بحجة السرية، فالأجدر في هذه الحال، أن يُمتنع عن استعمالها كليا، لأن معيار أساس نقد الروايات يقوم على البحث عما إذا كانت الواقعة المذكورة ممكنة، ووضعها من جديد داخل المجتمع الذي تنتمي إليه.

ويختتم الفصل السادس بالتطرق إلى قصص وروايات الرقيق سابقا: وهي حالة دراسة أراد الباحث من خلالها أن يوضح بعض القضايا المطروحة للنقاش في هذا الفصل، كون موضوع الرقيق في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية يعتبر مثالا مناسبا للدراسة، لأنه تتوفر فيه المادة الشفهية الأصلية..

ففي هذا المشروع الذي نفذ في الثلاثينات من القرن العشرين تم إجراء أكثر من 2000 مقابلة في سبع عشرة ولاية، وبالرغم من أن هذه المقابلات كشفت عن جوانب عديدة من تاريخ الرق في أمريكا إلا أن هناك عدة عيوب تنقص من قيمتها، ويمكن تلخيص هذه العيوب في النقاط التالية:

نسبة السود الذين اشتركوا في المقابلات يمثل 2% من عدد الرقيق.

نسبة عالية من هؤلاء الذين تم استجوابهم كانت تمثل خدم المنازل الذين لا يستطيعون أن يتحدثوا صراحة عن الأحوال المزرية في الحقول والمزارع.

إن نزعة المحاباة كانت كبيرة فيما يتعلق بالتوزيع الجغرافي، نصف المقابلات تقريبا قد أجرى في تكساس وأركانساس وكلتاهما تدخلان ضمن الولايات التي يتواجد بها السود، بينما أجريت مقابلات قليلة في ولايات تركز فيها وجود الرقيق مثل ولاية ميسيسبي.

صياغة عدد كبير من أسئلة تتطلب إجابة محددة مثل: هل كان سيدك شفوقا؟ هل كنت تتلقى غذاء جيدا؟ وبالنظر إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية بين السود والبيض أجاب عدد من الرقيق على هذه الأسئلة بطريقة (نعم.. نعم...).

وهناك مسألة أخرى تطرح إلى جانب هذه العيوب، فقد أظهرت الدراسات المعاصرة وجود تلاعب في الروايات وشطبا وحذفا وتعديلا في الأسلوب واللغة بالرغم من ادعاءات منظمي المشروع بعدم وجود تحرير للمحتوي.

يفهم مما سبق، أن طرق وأساليب الباحثين الذين قاموا بدراسة الرقيق سابقا في أمريكا كانت ضعيفة ومنحازة للبيض، وقد ركزت بشكل مباشر على بعض جوانب الحياة العائلية كالطفولة أثناء الرق. وتتبع الأنساب، وطبيعة الذاكرة والمقابلة الشخصية من الناحية الاجتماعية والنفسية، وبالتالي، فإن هذه الروايات تعد قاصرة، ولا يمكن الاعتماد عليها كمصادر صحيحة لأحوال وظروف الرقيق، بالرغم من أن بعض شهادات الرواة كانت مفيدة بخصوص بعض المواقف.

الفصل السابع "تيسير استعمال المصادر الأولية"

في الفصل الأخير يتناول المؤلف مسألة تيسير الوصول إلى المصادر الأولية للباحثين، وهو جانب مهم، وقد تم تجاهله بشكل عام منذ القرن السادس عشر الميلادي، الامر الذي جعل عددا كبيرا من الباحثين يشكون في مصداقية الأحداث، وهذا الشيء يكفي لتأييد أية وجهة نظر بالمستقبل. وأفضل مثال على ذلك يكمن في نظرية "كوبرنيكوس" التي تقول بأن الشمس مصدر الكون، حيث ساد الاعتقاد قبل ظهور هذه النظرية بأن الشمس والكواكب السيارة تدور حول الأرض، وهي (حقيقة) يفترض أنها قد تأكدت بظهور المسيحية، لكن شيئا فشيئا، وبعد تطور العلم وأدوات الرصد تم اكتشاف أجسام سماوية جديدة ولم يعد ممكنا التسليم بفكرة مركزية الأرض. إن هذا المثال يوضح أن اختبار الأفكار والتحقق منها يتم من خلال الملاحظة والقياس والتدوين في سجلات دقيقة لكل مرحلة من مراحل التجربة، وبناء عليه، يستطيع العلماء الآخرون الاستفادة من هذه الملاحظات، ومن ثم يمكنهم إعادة التجربة الأصلية من أجل اختبار دقة وصحة المعلومات.

وكذلك المؤرخ الشفهي يجب أن يظهر المصادر التي رجع إليها كي يتحقق من صحتها ويتم اختبارها في المستقبل، وفي هذا الصدد يشير المؤلف إلى أعمال أصبحت فيما بعد سببا في تدمير سمعة أصحابها العلمية، "ومثال ذلك العمل المنشور حول الرق في جنوب الولايات المتحدة

الأمريكية الذي أعده ونشره كل من روبرت و. فوجيل، وستانلي أنجرمان. وقدم هذان المؤلفان في عملهما المنشور (Time on The Cross) وجهة نظر حول الرق تختلف تماما عما كان مقبولا آنذاك، اعتمدا بشكل مكثف على الشواهد العددية والتقدير الاستقرائي (..) ونظرا لأن المؤلفين قد عرضا بشكل واسع وجهات نظر تعتمد على التقدير الاستقرائي الإحصائي والأدلة التي بنيت على أساس تلك الآراء. فإن النقاد استطاعوا الاستشهاد بعيوب واضحة في اختيار المؤلفين للمصادر في وسائلهما الإحصائية وفي افتراضاتهما الواسعة أيضا"(ص ص 281-282).

وفي إطار الحديث عن أهمية إتاحة الفرصة للتحقق من صحة المعلومات التاريخية، يعترف المؤلف إن المادة التاريخية الشفهية تثير مشاكل صعبة خاصة فيما يتعلق بقضية إثبات الآراء العلمية باستخدام وسوء استخدام وحفظ الأشرطة المسجلة في ميدان الدراسة الحقلية. وهذا الأمر يعود بالأساس إلى تردد بعض المؤرخين الذين قاموا بجمع التراث الشفهي بخصوص وضع كل المادة التي جمعت في متناول الباحثين.

وكما هو معروف، يقسم المؤرخون مصادرهم إلى (أولية وثانوية) الأولية: تشمل النقوش والعقود والدساتير والقطع المعدنية. وقد سميت بذلك الاسم كونها أقرب إلى المصادر الأصلية الحقيقة. وتأسيسا على ذلك، فإن الرواة هم المصادر الأولية لأغلب المؤرخين المهتمين بالتاريخ الشفهي، وكذلك الأشرطة الأصلية التي سجلت بلغة المقابلة في أول لحظة، إلا أن أشرطة المقابلات المسجلة تعتبر لدى المؤلف من المصادر الثانوية لأنها غير قادرة على مساعدة الباحث في تقييم ما تحتوي عليه المادة الشفهية، وينبغي أن تبقى دائما في مرتبة أقل من مرتبة الأشرطة ذاتها. أما المصادر الثانوية فتتمثل في كل مادة تعتمد على عمل سابق في الموضوع ذاته.

ومن أجل توضيح طبيعة وأهمية إتاحة الفرصة للآخرين بالاطلاع على مصادر البحث واستعمالات المادة الشفهية، يشير المؤلف إلى تجربة المؤرخين المهتمين بدراسة التاريخ الأفريقي، فمن "خلال مراجعة اثني عشر عملا من الأعمال التي ظهرت حديثا حول دواخل شرق أفريقيا التي تعتمد بشكل مكثف على المصادر الشفهية يتضح أن ثلاثة فقط من مؤلفي هذه الأعمال التاريخية يبدو أنهم قاموا بحفظ وتسجيل المادة التاريخية الشفهية" (ص289).

ومن هنا، يتأكد لدى المؤلف أن بنية التاريخ الأفريقي كله مشكوك فيها، وبالرغم من حجم هذه المشكلة، فقد تمت ملاحظة غياب التعليقات النقدية في عرض ومراجعات الكتابات التاريخية حول تاريخ أفريقيا، الأمر الذي يجعل استعمال المادة الشفهية لديهم لا يزال في مرحلة الطفولة.

وفي ختام الفصل الأخير يناقش المؤلف معضلة التحقق من صحة المصادر الشفهية، وينوه إلى ضرورة قبول الباحثين مسؤولية تيسير مصادرهم للباحثين الآخرين في أقرب وقت ممكن، وذلك بأن يعدوا نسخا من الأشرطة فور رجوعهم من بلد الدراسة الميدانية كي يتم حفظها في دور المحفوظات من أجل فهرسة المادة وتنظيمها ونشر ملخصات ومعلومات حولها بطريقة فورية واقتصادية.

وقد ظهرت بالفترة الأخيرة مشاريع رئيسة في حقل التاريخ الشفهي تنفذها عدة مكتبات أمريكية تهدف إلى جمع المادة الشفهية من أجل استعمالها في المستقبل، أما بالنسبة لمؤرخي الثقافات البدائية، فيتم استعمال المادة الشفهية بدون إيداعها في المؤسسات العامة للدولة. وللأسف، فإن غياب التوثيق سيساعد الذين ينزعون إلى الشك على إثارة الشكوك كونهم متأكدين أنه ليس بالإمكان الرد على شكوكهم بطريقة ملائمة.. وهذا الامر بالذات، يرغم المؤرخين المهتمين بالتاريخ الشفهي إلى أن يكشفوا عن مصادرهم من أجل استعمالها بالمستقبل. وإذا حدث ذلك، سينظر إلى مرحلة الطفولة (كما يقول المؤلف) كمجرد حادث عرضي في سياق تطور التاريخ الشفهي.

على سبيل الختم:

تتجلى أهمية هذا العمل في كونه يطمح إلى تحديد تطور كتابة التاريخ من خلال الرواية الشفهية، والوقوف على المشاكل والعوائق التي تواجه المؤرخ الشفهي ليجيب عن جملة من التساؤلات والاستفهامات تتعلق بالمستوى المنهجي على وجه الخصوص، ويمكن اجمال التساؤلات التي طرحها المؤلف وناقشها بكتابه في ذلك السؤال الذي جاء بالخاتمة، **ما هو التاريخ**؟

يقوم المؤلف باستدعاء الجدال والنقاش الذي دار بين المؤرخين لأكثر من 150 سنة عن الأحداث التمهيدية السابقة لهزيمة "نابليون" في معركة "واترلو".. مؤكدا إن أحداث الماضي لا تتغير، لكن، يمكن تفسيرها وشرحها في عملية لن تتوقف. وبالتالي، فإن حركة التأويل المنفتح للوقائع التاريخية "تضمن أن عمل بعض المؤرخين سيعيش، إما لأنه أفضل من غيره أو أنه قد برهن على أنه أكثر فائدة فيما يتعلق بملاءمته لوجهات النظر الحديثة(...) في حين أن عمل المؤرخين الآخرين سيسقط ولا يستعمله أحد لأسباب مختلفة. ومن المؤكد أن أجيال المستقبل ستقيم بعض أعمالنا بطريقة قاسية مماثلة لتلك التي حكمنا بها على بعض أعمال من سبقنا، فبينما نحن ننظر إلى الماضي، إذا يجب أن نتوقع ما سيحدث في المستقبل أيضا" (ص301).

ومن هذا المنطلق، يلح المؤلف على ضرورة اختيار المادة التاريخية وجمعها بدقة متناهية، كما لو أن هناك نقادا يراقبون عملنا عن قرب، وفي هذه الحال، نشعر بأن مساهمة التأريخ الشفهي بالنسبة إلى مجموع المعرفة التاريخية ستكون مهمة وباقية في الآن ذاته. وفي الختام، فإن دارسة الماضي الشفهي لا بد وأن تتم وفقا لمنهجية دراسة أي ماض آخر.

وأخيرا، لا بد من إسداء الشكر إلى المترجم الذي قدم للمكتبة العربية كتابا مهما يناقش طرق ووسائل التأريخ الشفهي في بحوث الكتابة التاريخية. إلا أن ما ينتقص من تكامل هذا العمل هو تجنب المترجم إيضاح بعض المعلومات بالهامش، مثل عدم الاعتناء بالتعليق على أسماء الأعلام والبلدان في منطقة أفريقيا. وهذا بالطبع، لا يقلل من قيمة الكتاب أو المترجم الذي قدم للمكتبة العربية كتابا يعالج موضوع التأريخ الشفهي معالجة علمية في ظل النقص الكبير في المراجع العربية، وعدم اهتمام الباحثين العرب بقضايا ومنهجيات دراسة التاريخ الشفهي، وهذا ما يؤكده أكثر من باحث.